# العدالة الاجتماعية في ضوء السيرة النبوية

# Social Justices in the Light of Prophetic Sīrah

عبد الوهاب جان*


## ABSTRACT

The study aimed at exploring social justice, peace, prosperity, love, welfare and coexistence in the light of Prophetic Sīrah being the model of humanism in the world. The Prophet Muhammad (ﷺ) was a paragon of social justice and a role model at the apex for humanity. He was a great social reformer and social activist. He (ﷺ) crippled an arrogant class and race-based system by the virtue of equality, avoiding the exploitation of basic rights of poor and by establishing a society based on virtues of charity and well-wishing. The Holy Prophet (ﷺ) strived for making a society based on collective and individual justice. He was real role model of tolerance and kindness which can vividly be observed at various events such as; entering the city of Makkah, the pact of Ḥudaybiya, the treaties with the non-Muslims, at the time of migration to Madīnah, fixing the Black-Stone and Ḥilf al-Fuḍūl. Thus, it is a fact that Holy Prophet (ﷺ) emerged a society that strives for gaining social justice. The researcher applied descriptive method for conducting this research. The study concludes the aspects of social justice in the Sīrah of the last Prophet which can surly enlighten the whole humanity and all societies of the world.


**Key words**: *Social justice, Prophet Muhammad (ﷺ), Sīrah, Rights*

* أستاذ مساعد،كلية أصول الدين،الجامعة الإسلامية العالمية،إسلام آباد

**توطئة:**

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على النبي الأمين، وعلى آله وأصحابه أجمعين. وبعد!

الإسلام دين العدالة الاجتماعية والفردية، وأن الرسول ﷺ هو نبي العدالة وناصر المظلوم وراعي الأيتام والأرامل ومساعد المستضعفين ومحرر العبيد، وإغاثة المنكوب وتحسين مستواه، وإن جميع مواقف النبي ﷺ قبل النبوة وبعدها سجلّ حافل بالعدالة الاجتماعية، وخير مثال على ذلك معاهدة حلف الفضول، وبناء الكعبة المشرفة، ووضع الحجر الأسود، ورفع مستوي المرأة في المجتمع، وإعطاؤها الحقوق في التملك والتصرف، والحرية، وفي ممارسة الأعمال الدينية والدنيوية، كما أن حياته مليئة بالحفاظ على العدالة الاجتماعية في السفر والحضر وصلة الأرحام واحترام الجيران والكف عن المحارم والدماء والأعراض، وهذه المعاهدات والمواثيق أبرمت لأجل تحقيق العدالة الاجتماعية أمثال بيعة العقبة الثانية، وميثاق المدينة، وصلح الحديبية، والمعاهدة مع أهل نجران وما إلى ذلك من رعاية شئون العباد والبلاد، كل ذلك خير دليل على أن الرسول ﷺ كان في خدمة الناس وتحقيق العدالة الاجتماعية قولاً وعملاً عقيدةً وسلوكاً، وحياته ﷺ مملوءة بتلك المواقف التي تضاف إلى سجل العدالة الاجتماعية سواء قبل الإسلام أوبعده، كما ذكرت السيرة النبوية الشريفة، وسوف يقوم الباحث بتناول بعض الوقائع من السيرة النبوية الشريفة التي يظهر فيها العدل الاجتماعي في الإسلام.

## العدالة الاجتماعية في المجتمع الجاهلي وبعثة الرسول ﷺ

نستطيع القول بأن العدالة الاجتماعية قد ازعجت المجتمع الجاهلي الأول، فبعد ترسيخ عقيدة التوحيد الخالص، إن الرسول ﷺ لم يكتف بدعوته بل أنه دعا إلى تحريم الربا والخمر والزنا والميسر، وقريش لا تستغني عن هذه الأربعة، ففيها متعتهم وتفاخرهم، وفيها غناهم وثروتهم، والنبي عليه السلام يرى منع ذلك؛ لأنه تعدى الطيبات، ومصادر الثروة ما بنيت على استغلال الفرص واستغلال حوائج الناس، فيعرض الفقراء لمزيد من المظالم(١).

فالرسول ﷺ لم يكتف بالتوحيد والبعث، وتحريم بعض ما طاب لنفوس القوم، بل دعا كذلك إلى أمر مفقود عندهم وهو حق المساواة، وهم الذين تربوا سنين على التفاخر والتعالي وإظهار الأنساب والتفاخر بها، فكان النبي ﷺ يرى في ذلك ضياعا لمفهوم العدالة الاجتماعية، وإن مساواته بين السادة

---

(١) مجموعة من العلماء بإشراف صالح بن عبد الله بن حميد،نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم،دار الوسيلة للنشر والتوزيع،جدة،السعودية،الطبعة السابعة: ٢٠١٠م،١/٢٢٢

والعبيد أثارت القوم أيما إثارة، بل أنه نادى بأن الناس جميعا سواسية كأسنان المشط، وهذا ما جعلهم يثيرون عليه ثورة عارمة أظهروا فيها تصرفاتهم الجاهلية الحمقاء[١].

وقد كان النبي ﷺ -بالرغم من كونه من أسياد قريش حسبا ونسبا- إلا أنه طبّق مفهوم العدالة الاجتماعية، وذلك حين فتح بيته واستقبل الفقراء والبسطاء والعبيد، أولئك المستضعفين الذين لا يجدون من يحميهم ويدافع عنهم ويطالب بحقوقهم ويحفظ إنسانيتهم.

ولقد كان من بواكير من أسلموا "زيد بن حارثة" وهو مولى مملوك من العبيد، ضلّ أهله واقترب من الرسول ﷺ، ولما عثر عليه أهله خيره الرسول ﷺ ما بين العودة إلى أسرته أميرا معززا أم يعيش مع النبي ﷺ، فاختار النبي ﷺ [٢].

وعرفت قريش الذين أسلموا، وكان منهم فقراء وبسطاء، فطلب القرشيون برؤيتهم السيادية وعيونهم المتعالية أن يمنع هؤلاء من الحضور إذا أراد النبي ﷺ في مؤخرة الصفوف وآخر المجلس، وكان النبي ﷺ يبحث في طلبهم هذا، فنزل قوله تعالى: ﴿واصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ والْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وجْهَهُ ولَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ولَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا واتَّبَعَ هَواهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾[٣].[٤]

ولقد نزل القرآن المكي يتعهد ذكر الأمم السابقة الهالكة وهي أمم تتشابه أفعالها تماما مع مشركي مكة، وفي هذه القصص تصريحات بضرورة ترسيخ مفهوم العدالة الاجتماعية. أما في المجتمع الجاهلي فإن هناك آيات نزلت توضح أن الإنسان ذكرا كان أو أنثى في الثواب والعقاب واحد، وأن للأنثى أن تنصح الرجل كما للرجل أيضا، وليست هناك عبادات لهذا أو ذاك، بل هم جميعاً في ذلك مشتركون، قال تعالى: ﴿والْمُؤْمِنُونَ والْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَولِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ ويَنْهَونَ عَنِ الْمُنْكَرِ ويُقِيمُونَ الصَّلَاةَ ويُؤْتُونَ الزَّكَاةَ ويُطِيعُونَ اللَّهَ ورَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[٥] فهذا من قبيل غرس المفهوم الجديد بين الرجل والمرأة بعد ما كان للرجل السيادة المطلقة بلا ضوابط[٦].

---

(١) نضرة النعيم، ٢٢٢/١

(٢) قلعجي،د.محمد،دراسة تحليلية لشخصية الرسول،دمشق،١٩٨٨،ص: ١٩١

(٣) سورة الكهف،الآية: ٢٨

(٤) الصلابي،د.علي محمد،السيرة النبوية عرض وقائع وتحليل أحداث،دار التوزيع والنشر الإسلامية،مصر،٢٠٠١، ١١٨/١

(٥) سورة التوبة،الآية: ٧١

(٦) السيرة النبوية للصلابي، ١٤٠/١

## التطبيق العملي للعدالة الاجتماعية، المرأة نموذجاً

عرف المجتمع السابق للإسلام -في كل بقاع الدنيا- بأنه مجتمع لم تكرم فيه الأنوثة في شيء، ولم تحترم رغبتها ولا آراميتها، وبلغت أنها كانت تقتل طفلة، أو يجبرها أبوها على البغاء مقابل الإتيان بالمال اللازم وليس لها حق في أموال ولا ميراث وتزوج بغير إذنها ولا كرامة(١).

وهذه الأوضاع أشارت إليها آيات القرآن الكريم، فقد نهى الدين عن وأد البنات، قال تعالى: ﴿وإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنْثَى ظَلَّ وجْهُهُ مُسْودًّا وهُو كَظِيمٌ يَتَوارَى مِنَ الْقَومِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَى هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ﴾(٢)، ويسجّل القرآن الكريم الحالة بنفسها فيقول: ﴿ولَا تَقْتُلُوا أَولَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ...الخ﴾(٣).

ومكانة المرأة الدونية لم تكن في الأمة العربية فحسب، بل كانت في حضارات أخرى مثل حضارتي الفرس والروم وغيرهما(٤). وكذلك كانت بعض الأسر تجبر الفتاة على البغاء وهي ترفض وتريد أن تعيش طاهرة نقية، وكان الأب يحصد الأموال من وراء ذلك، قال تعالى: ﴿ولَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾(٥)، كما كانت الأسر المحترمة ترتكب جريمة أخرى وهي إجبار البنت على الزواج ممن لا تريد، وقد حذر الرسول ﷺ من ذلك: «البنت تُستأذن وإذنها صمتها، والثيب تستأمر»(٦).

وهذا الكلام تناوله العديد من الأساتذة والعلماء، لكن الذي نريده الآن إلقاء الضوء على النتائج... فقد نتج عن ذلك تأخر واندحار في مفهوم العدالة الاجتماعية! وهل العدالة تستلزم أن تهدر قيمة المرأة ويكون للحيوان قيمة عنها؟ أما الرسول ﷺ فقد وجد هذا الحال على ما هو عليه، وهو أمر لا تفخر به أية حضارة فضلا عن المجتمعات الإنسانية المتنوعة.

فقد تزوّج من السيدة خديجة رضي الله عنها بعد أن عمل في تجارتها، وكأنه بذلك يرسخ مفهوم العدالة الاجتماعية، فلا ينكر عليها زواجها قبله من رجلين ماتا. وترك أولادهما ليربيهم النبي الكريم ﷺ، وكأنه

---

(١) الخولي،د.البهي،الإسلام وقضايا المرأة المعاصرة،الإتحاد الإسلامي العالمي للمنظمات الطلابية،الكويت، ١٩٨٠،ص: ٣٠-٣٧

(٢) سورة النحل،الآية: ٥٩

(٣) سورة الإسراء،الآية: ٣١

(٤) راجع: الإسلام وقضايا المرأة،ص: ١٢-١٦

(٥) سورة النور،الآية: ٣٣

(٦) القشيري،مسلم بن الحجاج،المسند الصحيح،كتاب النكاح،باب استئذان اليثب في النكاح،رقم الحديث: ١٤١٩،تحقيق: مُحَمَّد فؤاد عبدالباقي،دار إحياء التراث العربي،بيروت

يريد أن يؤكد أن الأرملة لها حقوق إنسانية، منها أن يفتح الإسلام لها باب الحياة من جديد[١].

وترسخ مبدأ لم يعهده الناس قبل، وهو أن السيدة خديجة ﵂ قد طلبته للزواج وهي سابقة لم تعهد بكثرة على مسامع الناس، وفي ذلك أيضا إحياء للعدالة الاجتماعية، فكم تجبر الأسر البنات على الزواج ولا ترى لتصرفها في نفسها حقوقا[٢].

والرؤية التطبيقية هنا تؤكّد أن النبي ﷺ لم يمارس رجولة زائفة على السيدة خديجة ﵂ بإطلاق الأوامر، وإنما منحها الحرية المطلقة في ممارسة تجارتها، وهي ارتكنت إلى أمانته، وكان لصعود قيمة المرأة إضاءة على أنها إنسان له حق الحياة ومستلزماتها، قال تعالى: ﴿ولَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ ولِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ﴾[٣].

وضرب النبي ﷺ مثلا للإخلاص لهذه المرأة الوفية (السيدة خديجة ﵂) ولم يتزوج عليها حتى وفاتها، وفي حياة الرسول الكريم قويت السيدة خديجة ﵂ حتى بلغ تأثيرها أن خافها المجتمع المكي، واعتبرها سندا للنبي ﷺ يعمل له ألف حساب، ولما ماتت في عام الحزن الذي مات فيه عمه أبوطالب قال المشركون: "لقد ماتا سندا محمد"[٤].

ويرتفع شأن المرأة في نموذج حياة النبي ﷺ مع السيدة خديجة ﵂ حين تمارس الدعوة وحمايتها والدفاع عنها، فهي تملك إيمانا فطريا زكيا، فتقف بجوار النبي ﷺ حين يتلقى الوحي لأول مرة، وتثبته وتذهب به إلى ابن عمها ورقة بن نوفل لتحكي له عن الناموس الأكبر (الوحي) الذي نزل على النبي ﷺ[٥]، وأن خميرة العدالة الاجتماعية التي في قلب النبي ﷺ وفطرته منحت هذه المرأة القوة فأظهرت مواهبها في صيانة هذا الدين.

وهو أمر يدعو المسلمين إلى أن يتربصوا بأحوال البنات، فيعطونهن حق التعليم إلى أعلى الدرجات فما ترتفع أمة إلا بالأخلاق والتعليم، وما تنحدر إلا بإهدار قيمة تعليم المرأة، وفي الحديث النبوي الشريف: «طلب العلم فريضة على كل مسلم» (وفي رواية أخرى) «ومسلمة»[٦].

---

(١) خالد فؤاد،د.محمد،السيرة النبوية،أضواء وإشراقات،القاهرة،٢٠٠٥،ص: ٤١

(٢) السيرة النبوية،خالد فؤاد،ص: ٤٣

(٣) سورة البقرة،الآية: ٢٢٨

(٤) أبوشهبة،السيرة النبوية في ضوء القرآن والسنة،دارالقلم،دمشق،الطبعة الثالثة: ١٩٩٦،٢٢٤/١،وحسين هيكل، د.محمد،في منزل الوحي،دارالمعارف،القاهرة،١٩٧١م،ص: ٧٨

(٥) راجع للتفصيل: المقريزي،إمتاع الأسماع،بيروت،١٩٨٠،ص: ٢٨

(٦) القزويني،محمد بن يزيد،صحيح سنن ابن ماجه،تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي،دار إحياء الكتب العربية،٤٤/١

إن مفهوم العدالة الاجتماعية رفع من شأن السيدة خديجة ﵂ كزوجة لآخر الأنبياء والمرسلين، وزوجات الدعاة وأصحاب الهمم يحتاجون إلى هذا النموذج المتكامل من النساء[١]. ضاحية وأنها أوّل من أسلم من الناس قبل أي أحد من الرجال، وأول من استمع إلى الوحي الإلهي من فم النبي ﷺ، وأوّل من تعلم الصلاة من الرسول الكريم[٢].

وكذلك كانت رعاية النبي ﷺ لبناته وحبه لهن فإنه كان انعكاسا للفطرة السليمة التي تحلّى بها الرسول ﷺ قبل الإسلام، وهو في مجتمع جاهلي كم أنكر عليه النبي الكريم ﷺ[٣].

## تطبيق العدالة الاجتماعية في العبيد وتحريره

هذا فضلا عن سياسة تحرير العبيد، فالعبيد فئة مستضعفة، يملكها السيد المالك فيفعل بهم ما يشاء، ويخدمونه عنده وله حق تأديبهم بكل الوسائل، ولقد عاشوا حياة ذلّ، ولما جاء الإسلام كان عددا فيهم في طليعة المسلمين ولم يكن من العدالة الاجتماعية تركهم لمن يعذبهم وينكل بهم، فجاء أبوبكر الصديق ﵁ وكان يحرر منهم الكثير ويدفع ثمنهم، ثم يحررهم ويعطيهم حريتهم، ومن هذه الأمثلة نموذج بلال بن رباح ﵁، حيث كان سيده أمية بن خلف يعذّبه وينكل به، واشتد ذلك عندما أسلم فكان يعذّبه ويجرّه في الصحراء، ويضع عليه الحجر فوق بطنه، ويجبره على الإسلام ويقول أحد أحد، وعلم سيدنا أبوبكر ﵁ فاشتراه من أمية بن خلف، ثم أطلق سراحه ومنحه الحرية[٤]. ولم يحرر أبا بكر حسب، بل حرر أيضا مثله عامر بن فهيرة، أم عبيس، والنهدية وبنتها وغيرهم من العبيد، وقد شاركه في ذلك عثمان بن عفان ﵁، وكل مسلم قادر كان عنده عبد قام بتحريره، وقد ضرب المسلمون مثلا رائعا بتطبيق العدالة الاجتماعية حيث أن العبيد في الأصل من بني آدم ﷺ، وقد وضع الإسلام كفاّرة الذنوب أن يحرر المسلم عبدا يعتق رقبة[٥].

## حلف الفضول ودور النبي ﷺ في تحقيق العدالة الاجتماعية

بعد الانتهاء من حرب الفجار عاد الحلفاء إلى مكة ببضاعة كانت في حوزة رجلاً من مدينة زبيد

---

(١) الحميدي،عبد العزيز،التاريخ الإسلامي مواقف وعبر،دار الدعوة،الإسكندرية،مصر،١٩٩٧م،٦٨/١

(٢) كركر،د.عصمة الدين،المرأة في العهد النبوي،الغرب العربي،بيروت،١٩٩٣،ص: ٣٦

(٣) د.عائشة عبد الرحمن،معاملة النبي لزوجاته وبناته،سيدات بيت النبوة،دارالمعارف،١٩٩٢م،ص: ١٨

(٤) انظر:خالد فؤاد،د.مُحَمَّد،رجال حول الرسول،بيروت،١٩٨٠م،ص: ٨٥

(٥) وافي،علي عبد الواحد،تحرير العبيد،مقال،مجلة الأزهر،١٩٦٦م،ص: ١١٨

(بلد في اليمن)[١]، وجاء العاص بن وائل[٢] ليشتريها من هذا الرجل ومنعه حقه، فاستعدى الزبيدي أشراف مكة على "العاص بن وائل" ونادى على آل فهر[٣] وأهل المروءة، فاجتمعت القبائل في دار عبد الله بن جدعان، وتحالفوا في شهر الله الحرام (ذوالقعدة) فتعاقدوا وتحالفوا بالله ليكونوا يدا واحدة مع المظلوم على الظالم، حتى يُردَّ إليه ما بلَّ بحرٌ صوفة[٤]، وما بقي جبلا ثبيرا وحراء مكانهما (وذلك كناية عن التأبيد والاستمرار إلى النهاية، كما أن ماء البحر لا ينقطع...)[٥]، وهذه القبائل انتزعوا سلعة الزبيدي من العاص بن وائل فدفعوها إليه، وأطلقت قريش على هذا التحالف الذي ينصح بالعدالة (حلف الفضول)، وقالوا: إن هؤلاء دخلوا في فضل الأمر، وقد حضر النبي مُحَمَّد ﷺ هذا الحلف الذي أبرز فيه العرب حبهم للعدالة، وقال فيه ﷺ: «لقد شهدت في دار عبد الله بن جدعان حلفا ما أحب أن لي به حمر النعم، ولو دعيت به في الإسلام لأجبت»[٦].

وهنا تبدوا ملامح العدالة الاجتماعية واحترام العدل وتقديره بشكل مطلق، والعدالة الاجتماعية لقيت احترام الرسول ﷺ مهما كانت حتى وإن كانت من دولة لا تدين بالإسلام.

كما تظهر من الواقعة أن حلف الفضول بمثابة ومضة لها بريق في ظلام الجاهلية، وإن كان في سنن التاريخ ما يؤدي إلى هلاك الأمم متى انتشر الشر فيها، فإن أي مجتمع -وفق سنن التاريخ- لا يخلو من فضيلة، فإن المجتمع الجاهلي برغم تفشي الربا والبطش، والزنا واستغلال العبيد، فإنه لم يخل من فروسية وشهامة ونجدة المستغيث ونصرة المظلوم[٧].

كما يظهر أن الظلم حرام، وأنه مرفوض بأي صورة حتى ولو كان في هيئة الخوض في حق شخص ما، وعندما جاء الإسلام حارب الظلم وطالب بالوقوف بجانب المظلوم، دون النظر إلى لونه ودينه، ووطنه وجنسه.[٨]

ومن فهم السيرة من خلال الأحداث النص النبوي هذا له تبين أنه من الجائز شرعا التحالف

---

(١) انظر: الحموي،ياقوت بن عبد الله،معجم البلدان،دار صادر،بيروت،الطبعة الثانية: ١٩٩٥م،حرف الزاي

(٢) سيد بني سهم في قريش يلتقي نسبه مع النبي مُحَمَّد ﷺ في كعب بن لؤي.

(٣) قبيلة آل فهر هم ابناء مفلح بن عياش بن شداد المغيري،عبدالرحمن،المنتخب في ذكر نسب قبائل العرب،شركة التراث البرمجيات،٢٠١٥م،٤٨/١

(٤) الإفريقي،ابن منظور،لسان العرب،دارصادر،بيروت،الطبعة الثالثة: ١٤١٤هـ،حرف الصاد،صوف،رقم الجزء: ٨

(٥) أبوشهبة،د.مُحَمَّد،السيرة النبوية في ضوء القرآن والسنة،٢١٣/١

(٦) ابن هشام،السيرة النبوية،جدة،١٢٢٨هـ،١٢٤/١

(٧) راجع: نير الغضبان،فقه السيرة النبوية،بيروت،١٩٨٧،ص: ١١٠

(٨) أبوفارس،السيرة النبوية،دمشق،١٩٩٢م،ص: ١٢١

على فعل الخير مع دول غير مسلمة تتفق على تحقيق العدالة الاجتماعية، وفي الفقه السياسي للإسلام: "إنه يجوز التعاون مع غير المسلمين في الأمور المشروعة التي يتقدم فيها الإسلام وأهله، وأما ما كان فيه إضرار بالمسلمين أو تأخر حالهم أوتعيق تقدمهم فهذا لا يجوز شرعا"(١).

وهذا النموذج الذي يطرح من فوائده ترسيخ العدالة الاجتماعية هو من بواكير مواقف النبي ﷺ في السيرة الشريفة.

## بناء الكعبة الشريفة وفيه العدالة الاجتماعية

هذا الحادث كان في الجاهلية أيضا، فإن إبراهيم عليه السلام قد بنى الكعبة بحجارة منضودة بعضها على بعض من غير طين يحكم بناؤها، ولما جاءت السيول تتوالى عبر السنين أصابتها حتى ارتأى رجال القبائل أن يهدموها، ثم يشيدها على إحكام وتثبيت، وعندما جاء وقت البناء والتشييد، اجتمع سادات وكبراء القبائل حيث اختصت كل قبيلة بعمل جزء من الكعبة كشرف يحوزنه طوال التاريخ، وشارك النبي ﷺ في بناء الكعبة هو وعمه، وجاء وقت وضع الحجر الأسود في موضعه فأرادت كل قبيلة الفوز بهذا الشرف وتنازعوا وتفاخروا بالماضي والأنساب وعلو القمة وكادوا يقتتلون!! فاقترح عليهم أبو أمية بن المغيرة أن يحتكموا لأول من يدخل عليهم من باب المسجد الحرام، وأراد جلّ شأنه أن يكون النبي الكريم ﷺ، فقالوا عندما رأوه: هذا هو"الأمين" رضينا بحكمه، فقال ﷺ : «هلمّوا ثوبا» أحضروا له ثوبا فوضع بيده الحجر على الثوب وقال: لتأخذ كل قبيلة بناحية من الثوب، ثم ارفعوه جميعا، ففعلوا حتى جاؤوا الركن فوضعه عليه السلام بيده الشريفة(٢).

هذه الواقعة يستدل بها المؤرخون وكتّاب السيرة على سلوك النبي ﷺ في جمع كلمة المتفارقين والألداء، وهذا صحيح لا مراء فيه، لكن من جهة أخرى نرى أن سبب النزاع أصلا يعود إلى تعالي بعض القبائل على الأخرى بالقهر وادعاء الشرف! واستمرار ذلك السلوك يهدر قيمة العدالة الاجتماعية ويقتلها من الجذور، الأمر الذي يتنافى مع فطرة الرسول النقية وإيمانه المطلق بفكرة العدالة الاجتماعية فهو -وإن كان منع خلافا سياسيا كبيرا- إلا أنه لم ير علوا لأحد على الآخر، وهذا في أصله مركز العدالة الاجتماعية، فحين تمنح السياسة وعلو الشخص في الإدارة فإن ذلك لا يمنحه السيادة، ولذلك كانت فطرة النبي ﷺ مع ترسيخ مبدء السواسية بين الكبراء والأسياد، وهذا ما بلغه الرسول ﷺ بعد نزول

(١) أبوزهرة،مُحَمَّد،العلاقات الدولية في الإسلام،دارالفكر العربي،١٩٨٥م،ص:١٨

(٢) المطلبي،مُحَمَّد بن إسحاق بن يسار،سيرة ابن إسحاق،تحقيق:سهيل زكار،دارالفكر،بيروت،الطبعة الأولى:١٩٧٨م، ١٩٨/١

الوحي حين قال: «... لا فضل لعربي على أعجمي...»[1].

إن التفاخر كان سمة معروفة بين القبائل في العهد الجاهلي، وكانت المشكلة مع هؤلاء تستلزم إصلاح عقيدة، وإزالة عادات تحرمها الإنسانية، أو قبول عبادات أو إصلاح مجتمع من المجتمعات "هذا من أصعب مهام الأنبياء والرسل"... والقضية الآن هي: إزالة أنقاض الجاهلية، ووثنية تخريبية تراكمت عبر القرون والأجيال ودفنت تحتها تعاليم الأنبياء والمرسلين... فكان لا بد من إحياء النفوس وبيان سموّ الإنسان وإحيائه من موات الجاهلية الأولى[2]. وكان حتما مقضيا أن يتغير المجتمع بعد ما مات عبر توارث العادات التي أفرزت الظالمين[3]. قال تعالى: ﴿أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[4].

## الهجرة إلى الحبشة

لقد رأى النبي ﷺ أن القلة التي آمنت تتعرض للإيذاء وربما إذا هلكت هلك الإسلام معهم، فلم يؤمن غيرهم، فنصحهم بضرورة الفرار بالدين عبر الهجرة إلى الحبشة وذلك في السنة الخامسة من البعثة[5]. وقد اتهم البعض النبي ﷺ بأنه من هاجرهم الفقراء الذين أسلموا ولم يجدوا في الإسلام عملا يتكسبون منه، فأراد مُحَمَّد ﷺ أن يمنحهم فرصة عمل يتكسبون منه في بلد غير مكة[6]. وهذا مما يؤسف له من تفكير ضعيف جدّا، فإن من هؤلاء المهاجرين عثمان بن عفان ﷺ أغنى أغنياء قريش وكبير تجارها، هاجر ومعه زوجته رقية بنت النبي ﷺ وعدد النساء... وهذه هي الهجرة الأولى للحبشة[7].

**وقد يسأل سائل: ما علاقة الهجرة إلى الحبشة بالعدالة الاجتماعية؟**

إن النبي ﷺ قد جمع في هذه الهجرة الأغنياء والبسطاء معا من رجال ونساء، من بني هاشم وبني أمية على السواء، وكذلك أفراد من قبائل أخرى ذابوا جميعاً في بوتقة الإسلام ولم يشعروا بالفروق الاجتماعية، بل كان في هذه الهجرة محنة ملحوظة اشترك فيها الجميع وتحملها الأغنياء والفقراء معا، وهذا الفرق يظهر في منهج النبي الأعظم ﷺ فهو أوّل من تحمل الأذى حتى لا يقول أحد أنه عرض المسلمين

(١) السيرة النبوية،ص:٢٨- ٣٩
(٢) الندوي،أبو الحسن،السيرة النبوية،دارغفاري،الأردن، ١٩٨٠م،ص: ٥٨، ٥٩
(٣) السيرة النبوية للندوي،ص: ٥٩
(٤) سورة الأنعام،الآية:١٢٢
(٥) ابن سعد،الطبقات الكبرى،دارالكتب،مصر، ١٩٨٠م، ٢٠٤/١
(٦) وات،مونتجمري،مُحَّد في مكة،ترجمة: قدري قلعجبي،دارصادر،بيروت، ١٩٨٠م،ص: ٤٨
(٧) العسقلاني،ابن حجر،فتح الباري بشرح صحيح البخاري،دارالكتب،المصرية، ١٩٧٠م، ٢٢٨/٧

للمحنة وإنما هو كان بعيدا عنها؛ لأن نسبه عال ولا يضارعه أحد في هذا النسب، وهكذا تبدو ملامح العدالة الاجتماعية جلية.

أما الفكرة فإن القرآن قد نزل مشيرا إلى ذلك دون تحديد وجهة معينة يقول الله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وأَرْضُ اللَّهِ واسِعَةٌ إِنَّمَا يُوفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾[١]، ومن هنا اختار النبي ﷺ الحبشة لتكون الموطن المؤقت للإسلام، ونلاحظ أن النبي ﷺ قد اختار بلد (الحبشة)؛ لأن ملكها يتصف بالعدالة الاجتماعية، وقد سمع عنه رسول الله ﷺ وقال فيها: «اذهبوا إلى أرض الحبشة فإن فيها ملكا لا يظلم عنده أحد»[٢]. وكان هذا الملك على دين النصرانية، وكانت فرصة مواتية لنشر الإسلام خارج مكة في بلد يحمل دينا سماويا، ولعل عرض المسلمين لجوانب الاتفاق بين النصرانية والإسلام يفتح مجالا لدخولهم في الإسلام[٣].

بلغت معلومات خاطئة إلى المسلمين في الحبشة فرجعوا إلى مكة، ولما عادوا رأوا تعذيبا أشد وتنكيلا أقوى... وقام المسلمون بالهجرة الثانية إلى الحبشة، ولكن هذه المرة يعقبهم القريش وبلغوا النجاشي وخاطبوه بشأنهم وأخبروه أنهم هاربون من بلادهم وخرجوا عليهم، وفارقوا دين الآباء، ولم يدخلوا في دينكم (النصرانية)، فاستفردوا بالرهبان والبطارقة النصارى ليقنعوهم، ولما بلغ الأمر النجاشي حكوا له وأخبروه أن هؤلاء المسلمين مبتدعون، جاؤوا بدين جديد، لكن النجاشي غضب جداً، وتعهد ألا يسلمهم، لأنه أعطاهم الأمان، ثم أوهموه أنهم يكرهون المسيحية ويقولون في حق مريم كلاما لا يليق بها، فطلبهم النجاشي وحاورهم فتكلم معه جعفر بن أبي طالب ردّاً على الأسئلة التي وجهها النجاشي له، فقال ﷺ: «يا أيها الملك! كنا قوما أهل جاهلية، نعبد الأصنام، ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش، ونقطع الأرحام، ونسيء الجوار، ويأكل القوي منا الضعيف، فكنا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولا منا، نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه، فدعانا إلى الله لنوحده ونعبده، ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان، وأمرنا بصدق الحديث وأداء الأمانة وصلة الرحم وحسن الجوار والكف عن المحارم والدماء، ونهانا عن الفواحش وقول الزور وأكل مال اليتيم وقذف المحصنات، وأمرنا أن نعبد الله وحده لا نشرك به شيئا، وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام».[٤]

ويبدوا من حوار جعفر بن أبي طالب ﷺ والنجاشي بعض الأمور جديرة بالأهمية تبيّن بعضا مفهوم العدالة الاجتماعية:

---

(١) سورة الزمر،الآية: ١٠

(٢) الطبري،مُحَّد بن جرير،تاريخ الأمم والملوك،بيروت،الطبعة الثانية: ١٩٨٥م،٣٢٨/٢

(٣) سيد قطب،في ظلال القرآن،دارالشرق،مصر،١٩٨٠م،٢٩/١،سليمان عودة،الهجرة الأولى في الإسلام،مكة، ١٣٣١هـ،ص: ٢٤

(٤) السيرة النبوية لابن هشام،٢٨٩/١،٢٩٣

١. أن القوي كان يأكل الضعيف، فنهى النبي ﷺ عن ذلك فأصبحوا سواسية وبنعمة الله إخوانا.
٢. قطع الأرحام حالة من التمزق الاجتماعي فأمر النبي ﷺ بإيصاله وقطع دابر الخصومات.
٣. إساءة الجوار نوع من الظلم الاجتماعي، نهى النبي ﷺ عنه وأوصى بالجار حتى ظن الناس أن النبي ﷺ سوف يدخله في الميراث.
٤. قول الزور نوع من الظلم الاجتماعي، يدخل البريء في دائرة الظلم الأسود، فنهى الله تعالى عنه وحذّر النبي ﷺ منه: «ألا وقول الزور، ألا وقول الزور، وما زال يكرره حتى قال من يجلسون حوله ليته سكت»[١].
٥. من أخطر القضايا الاجتماعية أكل مال اليتيم وهي صفة ما زال يرتكبها البعض إلى الآن، ونهى الإسلام عنها وفيه إحياء للعدالة الاجتماعية.
٦. عرفت الجاهلية سهولة النيل من الأعراض وقذف المحصنة، الأمر الذي يترتب عليه كسر القيم في المجتمع، وسهولة النيل من الأعراض، ومنع ذلك وتحريمه من شأنه غرس العدالة الاجتماعية حتى تشعر المرأة بالأمانة والسيرة الحسنة، فحماية المجتمع من الوالغين في الأعراض عدالة اجتماعية مستحقة.
٧. إن وجود ابن عم الرسول ﷺ، وصهره عثمان بن عفان ﷺ، وابنته رقية ﷺ جميعاً في مقدمة المهاجرين له دلالة عميقة تشير إلى أن الأخطار لابد، وأنه يتجشمها المقربون إلى القائد وأهله ورحمه، أما يكون القائد بعيدا عن الأخطار ثم يلقى فيها الأبعدون عنه، وغير ذي المكانة فهو منهج ليس من العدالة الاجتماعية، ولا يرتكبه رسول الله أبدا، لذلك كان هذا الفعل نوعا من العدالة الاجتماعية في الإسلام[٢].
٨. قد يكون في الوطن الواحد ديانتان، وقد يظلم أهل ديانة ديانة أخرى، وهذا من الظلم الاجتماعي، ولكن النبي ﷺ لم ير بأسا أن يأمر أتباعه بالذهاب إلى وطن ديانة أخرى يقيم حكامها العدالة الاجتماعية ويحترمون حقوق الإنسان.

---

(١) الترمذي، محمد بن عيسى، السنن، باب الشهادات، رقم الحديث: ١٨٦، شركة مكتبة مصطفى البابي الحلبي، مصر، ١٩٧٥م

(٢) السيرة النبوية لابن هشام، ٢٤٢/١

### بيعة العقبة الثانية وما فيها من العدالة الاجتماعية

اقترب الوعد الحق، وأصبح الرسول ﷺ قريبا من الهجرة فقد جالس وفد يقرب مرتبته، والأولى كانت نواة للبيعة الثانية، وفيها جاء وفد كبير رفيع المستوى مكوّن من اثنين وسبعين فرداً جالسوا النبي ﷺ، وأرادوا أن يكون بينهم، فكانت البيعة التي أبرزت بعض القيم التي تحمل وجه العدالة الاجتماعية، قال ﷺ : «أبايعكم أن تمنعوني مما تمنعون منه نساءكم وأبناءكم، فأخذ البراء بن معرور ﷺ بيده، وقال: نعم والذي بعثك بالحق (ثم قال) فنحن والله أهل الحرب، وأهل الحلفة، فقاطعه أبو الهيثم بن التيهان مسائلا: يا رسول الله إن بيننا وبين الرجال (يقصد اليهود في المدينة) حبالا وإنا قاطعوها (يعني: سوف نتركهم لنكون معك) فهل عسيتم أن نحن فعلنا ذلك، ثم أظهرك الله أن ترجع إلى قومك (في مكة) وتدعنا؟ فتبسّم رسول الله ﷺ ثم قال: «بل الدم الدم، والهدم الهدم، وأنا منكم وأنتم مني، أحارب من حاربتم وأسالم من سالمتم»[1].

وفي التعمق في النص النبوي الشريف الذي بايع فيه الرسول ﷺ أهل المدينة نرى أنه ﷺ غرس فيهم صفة نجدة المظلوم، فأيما قوم رأوا بينهم رجلا يظلم ولم يردوا عنه الظلم إلا حشروا مع الظالم سواء بسواء، وأدركتهم لعنة الله، وفيه غرس معنى العدالة الاجتماعية والتي بها يحيا المظلوم أمنا؛ لأنه حتما سيجد من ينصفه ويعطيه حقه.

والرسول ﷺ حين يعاهد أهل المدينة على ذلك فهو يعطي آنذاك مقدمة للإسلام الرافض لمبادئ الظلم الاجتماعي ولا ننسى أهمية هذه المبايعة، لماذا؟ لأن المدينة بها عناصر متشابكة، ففيها أكبر قبيلتين اقتتلا الأوس والخزرج، وهما من القبائل التي تسود متى حلت، فضلا عن اليهود الذين طالما أوقعوا العداوة بين الأوس والخزرج، وقدموا أسوأ أنواع غرس العداء وإشعال الحروب، هذا فضلا عن المشركين في المدينة[2]، وقد وضع الرسول ﷺ كل ذلك في اعتباره.

### العدالة الاجتماعية في الهجرة إلي المدينة المنورة

ونجحت أسباب الهجرة النبوية الشريفة ليذهب الرسول ﷺ إلى المدينة المنورة، ويؤسّس الدولة الأولى في الإسلام، وقد مرّت حوادث مؤلمة أثناء الهجرة حيث ظهرت عداوة القريشيين في التفريق بين الرجل وزوجته وأخذ أولادهم، وصادروا أموالهم وأخذوها وأخذوا ديارهم وكل ذلك من وسائل انتهاك العدالة الاجتماعية، كما لجأوا إلى أسلوب الحبس وإيقاع الإيذاء والتطليق ونحو ذلك، وتنوع الحبس حتى

---

(١) فتح الباري،رقم الحديث: ٥٧/٨،٧٠٥٦

(٢) غنيم،د.عبد العزيز،أضواء على السيرة النبوية،مكتبة الحسين،القاهرة،١٩٨٠م،ص: ١١٨

بلغ أن وضعوا عياش، وهشام بن العاص (كمثل ومثلهم كثير) في حجرة عالية الأسوار بدون سقف حتى يتعرضوا لحرارة الشمس القاسية في الصباح وذلك زيادة في التعذيب[١].

وحين بلغ النبي ﷺ المدينة كان يدعو لهم بالاسم في الصلاة أن ينجيهم من مظالم الكفر في مكة، روى البخاري أنه كان يدعو ﷺ فيقول: «اللَّهُمَّ أَنْجِ عَيَّاشَ بْنَ أَبِي رَبِيعَةَ، اللَّهُمَّ أَنْجِ سَلَمَةَ بْنَ هِشَامٍ، اللَّهُمَّ أَنْجِ الوَلِيدَ بْنَ الوَلِيدِ، اللَّهُمَّ أَنْجِ المسْتَضْعَفِينَ مِنَ المؤْمِنِينَ، اللَّهُمَّ اشْدُدْ وَطْأَتَكَ عَلَى مُضَرَ، اللَّهُمَّ اجْعَلْهَا سِنِينَ كَسِنِي يُوسُفَ»[٢]، وكل هذا كان انتهاكا للعدالة الاجتماعية وشيوع في ممارسة الظلم، ولم يقف النبي ﷺ مكشوف الأيدي، بل أرسل لهما من يطلق سراحهما وقد فعل[٣].

## الرحمة الممزوجة بالعدالة الاجتماعية

وضع النبي ﷺ للمسلمين سبل المحبة والتكافل الاجتماعي، وقد نجحت هذه الأخوة بدرجة عالية كبيرة ففتح الأنصار بيوتهم للمهاجرين الذين حملوا الدعوة وجاؤوا بها، فالبيت الواحد من بيوت الأنصار جمع بين المهاجر والأنصاري، وتقاسموا المأكل والمال والمسؤولية، وعرفت أشهر بيوت الأنصار بذلك، من أشهرهم: دار مبشر بن عبد المنذر حيث نزل عنده مجموعة من الرجال والنساء، وقد ضمت هذه الدور عمر بن الخطاب وبعض أهله، وعياش بن أبي ربيعة... وغيرها من الديار[٤].

وكانت هذه الصور من الترابط الاجتماعي قد جلبت لهم الثناء من الله تعالى حيث قال عزوجل: ﴿والسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ والْأَنْصَارِ والَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ ورَضُوا عَنْهُ وأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوزُ الْعَظِيمُ﴾[٥]، في حين كانت هذه المبادئ القويمة القاعدة الأساسية التي بنيت عليها مبادئ العدالة الاجتماعية.

## أهل الصُفّة والتجربة الحيّة

هم فئة من المهاجرين لم يجدوا مكانا في ديار الأنصار، فكانوا يسكنون المسجد، فكان من لم يتيسر له مكانا يأوي إلى تلك الصفة بالمسجد واتسعت حتى كانت عبارة عن مخيم كبير بجوار المسجد أيضا[٦]. وعرف هذا المكان بالاستضافة فيما بعد، وكان ينزل به الوفود التي كانت تأتي للنبي ﷺ.

(١) السيرة النبوية لابن هشام،٣١٤/١
(٢) صحيح البخاري،كتاب الاستسقاء،رقم الحديث: ١١٠٦،٢٢/٢
(٣) السيرة النبوية لابن هشام،٣١٤/١
(٤) السيرة النبوية لابن هشام،٤٦٨/١،٤٦٩
(٥) سورة التوبة،الآية: ١٠٠
(٦) الشامي،صالح أحمد،السيرة النبوية تربية أمة وبناء دولة،المكتب الإسلامي،القاهرة،بيروت،ص: ١٧٥

وكان المسلمون مهاجرون وأنصار يرعونهم ويهتمون بهم واستدعت فريضة العدالة الاجتماعية أن يكونوا في طليعة الاهتمام، وكان الرسول ﷺ بنفسه يشرف على راحتهم، فليس من العدالة الاجتماعية أن يتشتت هؤلاء ولا يجدون المأوى المناسب لهم، وكان من أشهرهم الصحابي الجليل أبو هريرة ﷺ وغيرهم، وكان هؤلاء أهل الصفة من العاملين والمجاهدين ومنهم من حكم في البحرين فيما بعد، وقد ذكرت كتب السيرة أسماءهم(١).

## العدالة الاجتماعية في المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار

حرص النبي ﷺ دائما على التآخي بين المسلمين منذ الوهلة الأولى للدعوة الإسلامية، فقال ﷺ: «لاَ تَبَاغَضُوا، وَلاَ تَحَاسَدُوا، وَلاَ تَدَابَرُوا، وَكُونُوا عِبَادَ اللَّهِ إِخْوَانًا، وَلاَ يَحِلُّ لِمُسْلِمٍ أَنْ يَهْجُرَ أَخَاهُ فَوْقَ ثَلاَثَةِ أَيَّام»(٢).

وقال أيضا: «المسْلِمُ أَخُو المسْلِمِ لاَ يَظْلِمُهُ وَلاَ يُسْلِمُهُ، وَمَنْ كَانَ فِي حَاجَةِ أَخِيهِ كَانَ اللَّهُ فِي حَاجَتِهِ، وَمَنْ فَرَّجَ عَنْ مُسْلِمٍ كُرْبَةً، فَرَّجَ اللَّهُ عَنْهُ كُرْبَةً مِنْ كُرُبَاتِ يَوْمِ القِيَامَةِ، وَمَنْ سَتَرَ مُسْلِمًا سَتَرَهُ اللَّهُ يَوْمَ القِيَامَةِ»(٣).

وهنا يظهر النبي ﷺ نهيه عن التحاسد والتباغض بين المسلمين دون النظر إلى جنس ولون أوحسب ونسب، فالأخوة موجودة دون النظر إلى العنصرية والأنساب ولا ذلك.

ويؤكّد ذلك قوله: «والمسلمون تتكافأ دماؤهم، يسعى بذمتهم أدناهم، وهم يد على من سواهم»(٤). وهذا النص النبوي الشريف يصب في قالب العدل الاجتماعي مباشرة، فدم المسلم الغني سواء بسواء مع دم المسلم الفقير، وفي الحديث أن من حق المسلم الضعيف أن يطالب بحق دم المسلم ولو كان ملكا متوجاً فكلاهما سواء ولا أفضلية لأحد إلا بميزان التقوى.

ولا يمكن لأي مجتمع أن يقوي على غير العدالة الاجتماعية بين أفراد هذا المجتمع إلا حينما يشعر أن كل أفراده متكافئون متعاونون لا يشعر أحد أنه أفضل من أخيه إلا بمعيار التقوى والإيمان.

وجاء الأمر الإلهي بقول: ﴿واعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا ولَا تَفَرَّقُوا واذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوانًا وكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾(٥).

---

(١) ابن كثير،إسماعيل بن عمر،السيرة النبوية،دارصادر،بيروت،١٩٨٥م،ص: ١٨٠

(٢) صحيح البخاري،كتاب الأدب،باب ما ينهى عن التحاسد والتدابر،رقم الحديث: ٦٠٦٥،١٩/٨

(٣) صحيح البخاري،كتاب المظالم والغضب،باب لا يظلم المسلم المسلم ولايسلمه،رقم الحديث: ٢٤٤٢،١٢٨/٣

(٤) النسائي،أحمد بن شعيب،السنن،رقم الحديث:٤٧٤٦،تحقيق:عبد الفتاح أبو غدة،مكتب المطبوعات الإسلامية، حلب،١٩٨٦،٢٤/٨

(٥) سورة آل عمران،الآية: ١٠٣

وقد أشار بعض المؤرخين إلى أن المؤاخاة قد حدثت في المدينة بعد الهجرة وليس قبلها، وهذا من حيث النزول للآيات، ولكن هل كان هناك عداء بين المسلمين في مكة؟ بالطبع لا، ولكن من السوء أن يحكى مؤرخ مثل المسعودي نحو هذا الكلام، لكن الواقع أن هناك تآخيا وتآلفا قد بدأ في مكة، بنيت المؤاخاة فيها على الحق المواساة، فقد آخى النبي ﷺ –وهو في مكة– بين المهاجرين والأنصار[١].

ولكن ابن القيم يرى أن رواية البلاذري فيها ضعف، وأن المؤاخاة في مكة لم يكونوا في حاجة إليها، ولكن المجتمع الجديد بين المهاجرين والأنصار كان يحتاج لعقد تآخي دعما للترابط، أما المهاجرون فإن كل ما سبق خلق بينهم أخوة طبيعية حيث تجمعهم روابط أخرى كالنسب والدار والبلد الواحد[٢]. وأيده في ذلك ابن كثير[٣]. ولأن ابن قيم وابن كثير من المحققين المدققين فإنهما رفضا رواية البلاذري؛ لأنه لم يرو عن أحد، بل قال في روايته بلفظ "قالوا"، لذلك رفضوا روايته.

لكن النصيحة والترابط وأخوة الدين ومجابهة الظلم كل هذا في مكة خلق أخوة ظهرت معالمها جيدا، ولم يترتب عليها حقوقا شرعية كالتوارث مثلا.

أما انصهار قوميتين (مكة – يثرب) في قالب واحد كان يحتاج لعقد يثبت ذلك، وقد نجحت الأخوة في المدينة بسرعة مذهلة، تعدّ من معجزات النبي ﷺ، فقد خلق فيهم رجالاً أصحاب مواصفات خاصة يختلفون عن طراز البشر جميعا، ونزل قول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ ورَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وأَطَعْنَا وأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾[٤].

أما العدالة الاجتماعية التي خرجت من هذا التآخي فإن جميع الحضارات تتلاشى دونها وتسقط، فلم يسبق لأي حضارة أن وضعت رجالا من هذا النوع، وصفهم جل شأنه في القرآن الكريم: ﴿والَّذِينَ تَبَوءُوا الدَّارَ والْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ ولَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا ويُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ ولَو كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ومَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾[٥].

ثم أكد على ذلك بقوله أيضا: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ واتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾[٦].

---

(١) البلاذري،أحمد بن يحي،أنساب الأشراف،بيروت،١٩٨٠م،٢٧٠/١

(٢) الجوزية،ابن القيم،زاد المعاد في هدي خير العباد،تحقيق:ناصر الدين الألباني،دار ابن الجوزي،القاهرة،٢٠٠٨م، ٧٩/٢

(٣) السيرة النبوية للصلابي،ص: ٢٨٩

(٤) سورة النور،الآية: ٥١

(٥) سورة الحشر،الآية: ٩

(٦) سورة الحجرات،الآية: ١٠

ووضع القرآن ضوابط لهم شاهدا على أخلاقهم، قال تعالى: ﴿والَّذِينَ آَمَنُوا مِنْ بَعْدُ وهَاجَرُوا وجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَئِكَ مِنْكُمْ وأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَولَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾(١).

ويمكن لنا تلخيص الفوائد التي أظهرها التآخي والتي صبت في وعاء العدالة الاجتماعية فيما يلي:

١. غرس القيم والمبادئ المثالية التي تعلمهم التعود على العدالة الاجتماعية بشكل تلقائي.
٢. تذويب الفوارق الإقليمية والقبلية وهي من الأمور الصعبة جداً في عهود الجاهلية والمناخ القبلي.
٣. نجحت العدالة الاجتماعية في تنحية العصبية القبلية بشتى الصور.
٤. وقد بنيت العدالة الاجتماعية التي أرساها الإسلام أنه من المستحيل استئناف حياة إسلامية قوية إلا إذا ترك الجاهليون -في أي مجتمع- العصبية القبلية(٢).

وفي هذا التوقيت نزلت آيات مبهرة تؤكّد صلابة المجتمع، وأنه بفضل غرس مفهوم العدالة الاجتماعية فإن الرسول ﷺ سوف ينتصر بقوة الله وبقوة دفع الجماعة المؤمنة التي توحّدت وشعرت أنه لا فضل لعربي على أعجمي، ولا لأحمر على أسود إلا بالتقوى وأن هذا التوحد القلبي الرائع بين القبائل المتناحرة قد أصبح لحمتها وسداها نسيجا واحدا ينجح في مجابهة الأعداء. قال جلّ شأنه: ﴿وإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُو الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وبِالْمُؤْمِنِينَ* وأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَو أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ولَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾(٣).

## الحفاظ على وحدة الجماعة

في ظل ترسيخ مفهوم العدالة الاجتماعية لابد وأن تكون هناك ثقافة لإصلاح بين الناس، فما يخلو مجتمع من المجتمعات إلا ويحدث فيه ما يعكر صفوف الجماعة بشكل عام، حيث تتراكم بعض المشكلات، لكن الإسلام قد صان الوحدة الإسلامية، وفرض نصوصا للمحافظة عليها من أجل أن تظل العدالة الاجتماعية على قيد الحياة.

فأنزل الله قرآنا يقول فيه: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ واتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾(٤).

---

(١) سورة الأنفال،الآية: ٧٥
(٢) للمزيد انظر:السيرة النبوية، ٢٩٦/١
(٣) سورة الأنفال،الآية: ٦٢،٦٣
(٤) سورة الحجرات،الآية: ١٠

وهنا نستخلص بعض الأمور للحفاظ على ما بناه الإسلام من العدالة الاجتماعية:

١. إن المؤمنين إخوة، وأقوى الأخوة هي أخوة الدين، ولا يوجد بين الأخوة كبير النسب ووضيع النسب، ولا حقير وشريف، فالأخوة ليس فيها كل هذه الفروق، وهذا يدعم فكرة العدالة الاجتماعية.
٢. إن الأسرة الواحدة، أو المجتمع الواحد قد تحدث فيه تمزقات من جراء كثرة الخلافات، فلابد آنذاك من وجود فريق يسرع بالإصلاح بين الناس ويقرب أسباب الفروق، وهذه الفتن لا ينجو منها أولئك الذين التزموا الصمت، ووقفوا موقف المشاهدين، فإن الله أمر هؤلاء أن يتحركوا للإصلاح فوراً، وأن كل ثانية تمرّ على حال المتخاصمين يحمل وزرها الصامتون المشاهدون، فمناخ الخصومة يستدعي كل أسباب الفرقة والعداء، الأمر الذي إذا طال استفحل شره.
٣. ربط الإسلام هذا العمل بالتقوى ولم يربطه بالهوى والميل إلى الظالم، فالسكوت تأييد للمخطئ وظلم للمظلوم، وإقرار لوضع خاطئ، ولا يمكن للعدالة الاجتماعية أن تنمو في ظل هذا المناخ.

## صحيفة المدينة والعدالة الاجتماعية

وضع النبي ﷺ دستوراً للمدينة مملوءاً بالقيم والقوانين التي تصون العدالة الاجتماعية، فلم يتركها فقط لقلوب الناس لأنها تفسد كما يفسد الطعام، ولا علاج لها سوى إلقائها في حظيرة جهنم وبئس المصير، وكان هذا الدستور أو صحيفة المدينة قد أقرّت رسميا العدالة الاجتماعية بشتّى أبعادها[١]، والتي فيها حرص النبي ﷺ أنه تتكاتف كل فئة مع نفسها، ومع غيرها ووضع فيها أسس التعاون مع غير المسلمين وأن فيها المقدم هو صاحب التقوى والأنفع للمجتمع... انظر على سبيل المثال البند الثالث عشر من الوثيقة والذي يقول فيه النبي ﷺ: «وإنه من تبعنا من يهود فإن له النصر والأسوة غير مظلومين ولا متناصر عليهم»[٢].

وأيضا يلاحظ في البند ١٧ (السابع عشر) قوله ﷺ : «وأن المؤمنين (يكف) بعضهم على بعض بما نال دماءهم في سبيل الله»[٣].

---

(١) العمري،ضياء الدين،السيرة النبوية الصحيحة،دارالسلام للنشر والتوزيع،دمشق،٢٠٠٥م،٢٧٥/١
(٢) السيرة النبوية لابن هشام،٢٠١/٢
(٣) نفس المرجع والصفحة

**خاتمة ونتائج البحث**

- أُرسل الرسول مُحَّد ﷺ إلى قوم جاهلين، ولكن أتى لهم أسس العدالة بين الناس بدون أي تمييز بينهم، وهي أحكام العدل والتسامح والسلام والأخلاق الحميدة والاستقرار في النظام الاجتماعي.
- رد الرسول مُحَّد ﷺ كل المفاهيم الجاهلية مثل تفاخر اللسان، والعرق، والمستوى الاجتماعي، والقومية؛ لأن أخلاق القرآن تردّ بشدّة على مثل هذه التمايز بين الناس، وأن التفاضل هو في الإيمان بالله وفي التقوى.
- ويتجلى العدل الاجتماعي في مكة حين تتجمع الرؤوس كبيرها وصغيرها غنيها وفقيرها لا يتفاضل فيها نصيب عن عامة الناس، فيصتفون في صفوف واحدة، ويجتمعون في دار الأرقم ليتلمذوا علي يد النبي مُحَّد ﷺ، ولقد شعر المنتمون للإسلام بأنهم سواسية كأسنان المشط فعلا، لا فضل لعربي منسب قرشي أوعبد حبشي فقير.
- كما كسر نبينا ﷺ صنم العنصرية العصبية التي منتشرة بينهم، وأعلن بأن الناس جميعًا متساوون أمام الله، ويقول لهم النبي ﷺ: «أيها الناس ألا إن ربكم واحد ألا إن أباكم واحد لا فضل لعربي على أعجمي ولا لأعجمي على عربي ولا لأسود على أحمر ولا لأحمر على أسود إلا بالتقوى»(١).
- العهود التي عقدها نبينا مُحَّدﷺ في عهده مع أهل الكتاب والمشركين حققت العدالة في المجتمع، حيث توصَّل إلى عقد اتفاقيات مع أكثر من مائة من التجمعات إما عن طريق الرسائل أو التحدث معهم شخصيًا بهدف تحقيق السلام والوحدة الاجتماعية في مجتمع المدينة ذات البنية المتعددة الاتجاهات، ويُمثِّل ميثاق المدينة الذي حقق حرية الدين والإيمان على مستوى واسع.
- نجاح المسلمين بعد سنوات في فتح مكة وأوّل ما أرسوه هو العفو، ثم العدالة الاجتماعية، وتتتوج تعاليم السماء بحجة الوداع الذي صان فيها النبي ﷺ دماء المسلمين ووحدتهم، والحفاظ على هويتهم الإسلامية، وحفظ حقوق النساء(٢)، وشمل في خطبة الوداع كل شرائع الإسلام وغاياته وأهدافه وما أورع العدالة الاجتماعية التي رأيناها خلال هذه الرحلة الموجزة.

هذا وبالله التوفيق، وأصلّي وأسلّم على حبيب رب العالمين.



(١) السيرة النبوية للصلابي،ص: ٢٨- ٣٩

(٢) الغزالي، مُحَّد،فقه السيرة،دارالدعوة،الإسكندرية،١٩٨٨م،ص: ٢٩٩